www.shabcenter.ly
info@shabcenter.ly

برعاية المدار الجديد

جعفر شيخ إدريس: وقار العبقرية؛ وتواضع العلم

نزار عثمان

ورحل الشيخ جعفر شيخ إدريس إلى دار البقاء؛ بعد حياة حافلة بالبذل والعطاء؛ أسأل الله أن يتقبله ويجزيه خير الجزاء.

من هو الشيخ جعفر شيخ إدريس:

هو أحد أبرز المفكرين الإسلاميين في العصر الحديث حيث جمع بين الأصالة والمعاصرة. ولد بمدينة بورتسودان عام 1391 م؛ وتلقى تعليمه الأولي والمتوسط بها ثم التحق بثانوية حنتوب ومنها إلى جامعة الخرطوم كلية الآداب حيث حصل على درجة البكالريوس مع مرتبة الشرف الأولى في تخصص الفلسفة؛ وابتعث إلى بريطانيا لتحضير الماجستير؛ ولجودة البحث تم ترفيعه إلى درجة الدكتوراة؛ عمل الشيخ رحمه الله بالتدريس في جامعة الخرطوم؛ وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية؛ وأشرف على عدد كبير من الطلاب في مرحلتي الماجستير والدكتوراة؛ أسس الجامعة الأمريكية المفتوحة مع بعض الناشطين؛ وعمل مستشارا لعدد من المؤسسات الدعوية في أنحاء العالم. قدم مئات المحاضرات باللغتين العربية والإنجليزية في أفريقيا وآسيا وأوروبا وأستراليا وأمريكا الشمالية ودول الكاريبي وأمريكا اللاتينية. وشارك ببحوث قيمة في عدد كبير من المؤتمرات؛ كما شارك في عدد البرامج الإذاعية والتلفزيونية؛ له مقالات كثيرة في الصحف السودانية؛ ومقالات في مجلات إسلامية وأكاديمية باللغتين العربية والإنجليزية. كان يكتب زاوية شهرية بعنوان: الإسلام لعصرنا. بمجلة البيان إلى أن أقعده المرض سنة 1102م. له عدد من الكتب القيمة باللغتين العربية والإنجليزية. توفي يوم السبت 5202/7/91 ودفن بالبقيع .. رحمه الله وتقبل جهده وجهاده.

تواصل مبكر:

كانت أول معرفتي بالشيخ رحمه الله عبر كتابه «نظرات في منهج العمل الإسلامي» كان ذلك عام 3891م تقريبا؛ كنت وقتها في المرحلة الثانوية؛ وكانت فيها بداية تعرفي على جماعات العمل الإسلامي؛ وكنت أناقش أخي الأكبر في بعض أمور الجماعات؛ فأحضر لي كتاب «نظرات في منهج العمل الإسلامي»

وطلب مني أن أقرأه قراءة فاحصة وأفهم ما فيه؛ وبالفعل وجدته روضا أنيقا؛ أعجبني الكتاب؛ وأفادني في أمور عديدة وبصرني ببعض أدواء التنظيمات الدعوية مثل: الطاعة الشركية؛ وإلزام الفرد برأي الأغلبية؛ والشورى الزائفة؛ والعصبية ونحوها من أمراض التنظيمات. ونمى فيّ روح الاستقلالية في التفكير والتقدير؛ وكانت تلك طريقة الشيخ رحمه الله التي طبقها في حياته؛ حيث لم يترك الجبهة الإسلامية القومية رغم خلافه العريض مع الترابي؛ ولم يستتر في معارضة كثير من أفكار الترابي وسار في توازن؛ يتعاون فيما يراه صوابا؛ ويجهر بمعارضة ما لا يراه كذلك.. وكانت للشيخ في ذلك نظرة هي أن الانسحاب ليس حلا؛ والأولى الحفاظ على الصلة مع الجهر بالحق والعمل على إنفاذه بالأدوات الممكنة؛ ولعل مما يؤيد هذا ما حاكاه لي د. بسطامي محمد سعيد رحمه الله أنه عندما كان في المرحة الثانوية في بورتسودان قرر هو وبعض رفاقه أن يقدموا استقالتهم من الحركة الإسلامية لمواقف لم يستحسنوها؛ وأنهم استشاروا بروفسير جعفر في ذلك؛ فقال لهم: وهل تظنون أن استقالتكم ستجعلكم . في أعين العوام . بعيدين عن تبعات المواقف التي لم تستحسنوها؟ والله لو رآكم العوام تشربون الخمر؛ لما قالوا إنكم ضللتم بل قالوا انظروا إلى أعضاء الحركة الإسلامية يشربون الخمر؛ فكان ذلك سببا في عدولهم عن الاستقالة.

البعد عن العصبية الحزبية:

استقلالية الشيخ رحمه الله كانت مضطردة مع الجميع؛ الأكابر والأصاغر؛ فلا صواب عنده إلا ما كان له دليل شرعي صحيح أو عقلي مقنع؛ أذكر في هذا أنه كان يتحفظ على ورد الرابطة للإمام حسن البنا . رغم إجلاله وتقديره له . فيقول معلقا على دعاء البنا رحمه الله: (اللهم إنك تعلم أن هذه القلوب قد اجتمعت على محبتك، والتقت على طاعتك وتوحدت على دعوتك، وتعاهدت على نصرة شريعتك ..الخ) كيف لي أن أطلق هذا الإطلاق وأشهد أن الله يعلمه؟ كيف لي أن أعرف أن القلوب قد التقت على طاعته؟ واجتمعت على محبته؛ هل أستطيع أن أحكم على قلبي أنه كذلك؛ دعك من قلوب الآخرين!.

وكان الشيخ رحمه الله شديد الإجلال لسيد قطب رحمه الله لكن ذلك لم يمنعه من أن ينتقد بعض الأفكار التي كتبها سيد رحمه الله.

وكان يعيب على الإخوان عدم استحداثهم لوسائل جديدة للدعوة؛ ويستدل لذلك بمقولة أعجبته من كلام الشيخ سليمان عثمان أبو نارو رحمهما الله؛ حيث قال أبو نارو: «البنا بعد سنوات قليلة من انطلاق دعوته كتب رسالته: دعوتنا في طور جديد» غير أن إخواننا هؤلاء ما زالوا بعد مرور عقود عديدة مصرين على الطور القديم.

مع الشيخ في زياراته للسودان:

في فترة الجامعة اقتربت من كتب الشيخ رحمه الله أكثر؛ ذلك لأني وجدت من يحدثني عن مجاهدات الحركة الإسلامية للنميري والأساتذة الذين أبعدهم أو آثروا الابتعاد عن التدريس في الجامعة في بداية حكم النميري عندما كان شيوعيا من أمثال بروفسير جعفر شيخ إدريس؛ ومحجوب عبيد وغيرهم.

أيام دراستنا الجامعية كان بروفسير جعفر في الجامعات السعوية؛ يأتي في الإجازة للسودان ويقدم محاضرات في أماكن متفرقة؛ وكنت حريصا على حضور تلك المحاضرات؛ وكان أبرز ما لاحظته فيه؛ أنه متواضع جدا؛ فرغم مكانته العلمية العالية إلا أنه لا يتضجر من مناقشة العوام؛ ومحاورة المتعصبين ضده .. لا تستفزه الكلمات ولا ينفعل بالتصريحات ولا التلميحات؛ ولعل متابعة الحلقات الحوارية التي أجراها معه الأخ الطاهر حسن توم تدلل على ذلك.

كذلك كان الشيخ رحمه الله واضحا مباشرا لا يجامل في الجهر برأيه والدفاع عنه. كما كان صاحب حجة قوية ومنطق سديد؛ ولعل تخصصه في الفلسفة أفاده في ذلك.

الشيخ من قريب:

أول لقاء مصغر جمعني بالشيخ رحمه الله؛ كان في مركز الكلم الطيب للبحوث والدراسات في مكتب د. عصام البشير؛ ثم توالت اللقاءات بعدها؛ وعندما عاد الشيخ رحمه الله من السعودية واستقر بالسودان كان مكتبه مجاورا لمكاتبنا بصحيفة المحرر؛ ولإذاعة طيبة لاحقا؛ فكنت أقابله كل يوم وأحظى بفوائد متفرقة من هنا وهناك. وأذكر مرة أنه وجدنا نناقش ما أثاره البعض من أن من إعجاز القرآن العددي أنه فيه إشارة لأحداث 11 سبتمبر؛ أذكر أن الشيخ علق بكلمات موجزة نسف بها الفكرة تماما؛ حيث قال: وهل تظنون أن القرآن يعبأ بالتأريخ الميلادي حتى تكون في إشارات إليه؟

أذكر أيامها أنه ناقشني في عمود كتبته في صحيفة المحرر فكدت أطير من الفرح و «كبرت كراعي من الفرح نص في الأرض ونص في النعال»؛ سعدت أن الشيخ رحمه الله اهتم ببعض ما كتبت.

زرت الشيخ في بيته في الرياض أكثر من مرة في تلك الفترة رفقة أحمد مالك رحمه الله وآخرين.

مما أذكره كذلك أنني في مطلع الألفية الثالثة أرسلت له نسخة من مخطوطة كتابي: النجاح مبادئ وخصال؛ وطلبت رأيه فيه؛ أرسلتها له عبر البريد الإلكتروني؛ فجاءني الرد الواضح الصريح كعادة الشيخ؛ أنه ليس متخصصا في هذا المجال ولا يستطيع أن يفيدني في كثير؛ والأفضل أن أطلب رأي المختصين. فأكبرت ذلك في الشيخ.

الشيخ العابد:

توثقت علاقتي بالشيخ جدا عندما عملت معه في منتدى النهضة والتواصل الحضاري؛ كان مكتبه في الطابق الأرضي؛ ومكتبي في الطابق الأول؛ وكنت أمر عليه جيئة وذهابا؛ في هذا القرب ظهر جعفر شيخ إدريس العابد الناسك؛ كان قريبا من القرآن؛ وله استنباطا لم أجدها عند غيره؛ أذكر أن الشيخ رحمه قال

لنا مرة: كثير من الناس ينتبهون في قوله تعالى (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم ويغفلون عما فيها من مدح للصحابة رضوان الله عليهم أنهم أباة أعزاء لا يقبلون الغلظة والفظاظة من أحد ولو كان يدعو إلى الحق.

ثم وجدت الشيخ حفظه الله قد كتب هذا المعنى فقال:

(و الدعوة إنما تكون بالكلام الجميل الذي تأنس به المسامع وترتاح إليه القلوب : (وقولوا للناس حسناً)، (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن). لكن بعض إخواننا - عفا الله عنهم - جعلوا الدعوة إلى أعظم حق وأفضل خير : عبادة الله وحده والاستمساك بسنة نبيه - جعلوها مرتبطة بأنواع من الجفاء والغلظة التي تنفر منها طباع الكرام. ألم يتأملوا قول الله تعالى لرسوله (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر؛ يا الله! فكأن الله تعالى يقول لرسوله الكريم : إنك لو أبقيت على كل ما فيك من خصال الخير، ولو بقيت تدعو إلى ما تدعو إليه من حق، لكنك مع ذلك كنت فظاً غليظ القلب لانفض من حولك هؤلاء الذين هم الآن معك. لماذا يا ترى؟ لأنهم أناس كرماء يحترمون أنفسهم ولا يرضون لها أن تذل حتى من رجل في مثل شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم.

وما كل الناس كذلك؛ بل إن منهم من لا يبقى ولا يطيع إلا مع الإذلال والهوان. ألم يقل الله تعالى عن قوم فرعون : (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين). .)) أ.هـ

كان الشيخ رحمه الله محافظا على الصلاة في المسجد؛ فلم أره تركها قط؛ كان هناك مصلى في مبنى المنتدى؛ وكنا نحن الشباب نصلي في هذا المصلى لكن الشيخ كان يحرص على الصلاة في المسجد المجاور؛ وعندما أقام لنا درسا في مصلى المنتدى في شرح مقدمات كتاب الموافقات للشاطبي؛ كان يصلي

فـي المسـجد ثم يأتـي لمصلى المركز ليقيـم الدرس فيه. كان حريصـا على وقته؛ محتويـا لمـن حولـه في وقت معا؛ فـلا يضجر من دخول عليه بغيـر إذن؛ ولا دعوته لمشـاركة فـي برنامـج دون تخطيط؛ كان يسـتجيب في تلقائية وبسـاطة إن كان فـي مقـدوره المشـاركة؛ أو يعتـذر بلطـف إن كان عنـده ما يشـغله. ولقد حضرت نقاشـات سـاخنة ارتفعت فيها أصوات بعضنا لكن الشـيخ رحمه الله لم يرتفع له صـوت ولا نبـت له كلمـة .. كان وقورا فـي غضبه.. كثيرة التبسـم في رضاه.

وفاة الشيخ:

مـرض الشـيخ وتوقـف عـن المحاضـرات والنشـاطات العامـة منذ مـا يقرب من عقديـن مـن الزمـان .. واختـار الانتقـال للملكـة العربيـة السـعودية مـرة أخـرى للاستشـفاء؛ وصبـر علـى المرض؛ ولـم تنقطع صلته بالنـاس؛ ومما أذكـره أنه في أحـد مجالـس الجمعـة فـي بيـت الأسـتاذ عبـد الحفيـظ عبد الـرؤوف ذكر الأسـتاذ أحمـد عبـد الرحمن رحمـه الله أنه كان فـي المملكة العربية السـعودية؛ وأنه زارها لا لشـيء إلا ليعود أخاه جعفر شـيخ إدريس لأنه سـمع بمرضه ودخوله المستشفى هنـاك... كان ذلـك فـي عـام 3102 تقريبـا؛ فأنعـم بهذا الإخـاء وأكرم بـذاك الحب.

ختامـا الـكلام في الشـخ لا يوفيه حقـه؛ وفقده خطب عظيم؛ أسـأل الله أن يتقبل

جهده وجهاده وينفعنا بـه

والله خيـــر وأبقـــــــى

خير من العباس أجرك بعده

والله خير منك للعباس